رفات مظلوم

صدق من قال أن الحياة لا تعطي كل شيء، بل قل إنها أصدق مقولة سمعتها في حياتي، كيف لا وأنا من تفطر قلبه وتمزق بين ضلوعه، كنت أعيش في وهم، أظن أن الحياة قد أعطتني كل شيء، ولد في غاية الجمال يشبه والدته التي كانت هدية من السماء، المال متوفر وبكثرة ولله الحمد ...

حدثت الفاجعة حينما اكتشفت أن زوجتي مصابة بالمرض الخبيث، المرض الذي نخشى حتى أن نذكر اسمه وكأنه يأتي حينما نذكر تردد اسمه في الفراغ، يذكرني بملوك الجان الذين يحضرون حينما تنطق بأسمائهم ..

كانت صدمة ما بعدها صدمة، كيف لا وهي قد أعطتني كل شيء في تلك الحياة، جعلتني أسخر ممن يقولون أن الزواج تنتهي حلاوته بعد شهر واحد، فأنا متزوج منذ عشرة سنوات ولازلت أشعر أنني متزوج منذ يومين، لا أذكر أننا تشاجرنا يومًا، لا أذكر أنها أغضبتني ولو مرة واحدة ..

ماتت زوجتي هكذا بدون مقدمات، شعرت بخنجر حاد يخترق نياط قلبي، بكيت يومها أكثر من ابني الصغير، أشفق الناس عليَّ أكثر من اشفاقهم على الصغير، وقفت يومها أمام القبر لساعات غير مصدق أن هذا القبر قد أخذها مني، ولكنه أمر الله ولا نملك إلا الصبر ...

مـر الأسـبوع الأول وأنـا في عالـم آخـر مـن التيـه والضيـاع، ابـني الصغـير أصبـح يهتـم بي حـتى لا أمـوت مـن الحـزن، قـررت أن أذهـب لهـا لزيارتهـا في قبرهـا ومـن هنـا بـدأت الأحـداث تأخـذ منحـنى آخـر ...

أسـتقل السـيارة وبجـواري ابـني الصغـير، كنـت أتمـنى أن أمـوت قريبًـا كمـا يحـدث مـع المحبـين فـإذا مـات شـخصًا أحببتـه بشـدة فإنـك تذهـب إليـه بعـد أيـام هكـذا قالـوا، وهكـذا تمنيـت أن يحـدث ..

وصلنـا إلى منطقـة المقابـر وأنـا لا أشـعر برهبـة المـكان عـلى عكـس الصغـير الـذي شـعرت بـه يرتجـف مـن الخـوف، نسـير بـين شـواهد القبـور الـتي أشـعر أنهـا تمتلـك أعـين وتراقبنـا بهـا ولكنـني لا أهتـم بهـا، وصلنـا إلى قـبر زوجـتي ووقفـت أمامـه، أرى بعـين الخيـال ضحكتهـا، أراهـا تبتسـم لي وهـي تحـضر لنـا الطعـام، أراهـا نائمـة بجـواري كالقمـر في ليلـة تمامـه، وقفـت أدعـو الله لهـا، وأن يجعـل قبرهـا روضـة مـن ريـاض الجنـة كمـا كانـت تجعـل حيـاتي مـن قبـل جنـة، لـم أشـعر بدموعـي الـتي بـدأت تنسـاب بهـدوء عـلى وجنـتي، الذكريـات تـأبى أن تفارقـني، أتذكـر كل لحظـة رأيتهـا فيهـا تبتسـم، أتذكـر يـوم زفافنـا بكافة تفاصيلـه، انتابـني إحسـاس غريـب وكأن هنـاك مـن يحـذرني مـن التواجـد والبكاء هنـا، الخـوف بـدأ يطـرق أبـواب قلـبي بـكل هـدوء، قـررت أن أذهـب مـن هـذا المـكان، نظـرت بجـواري فلـم أجـد الصغـير ..

يـا للمصيبـة، انطلقـت أهـرول كالمجنـون بـين حـارات المقابـر، أسـمع ضحـكات شـواهد القبـور عـلى فزعـي، أصـوات تخـترق رأسي بقـوة، الفـزع يتجـلى في ملامحـي، أيـن ذهبـت يـا زيـاد ؟؟

وقفـت أصيـح بأعـلى صـوتي عـلى الصغـير ولكـن مـا مـن مجيـب، سـقطت عـلى ركبـتي وأنـا في حالـة يـرثى لهـا، لقـد فقـدت الصغـير هكـذا قلـت في نفسـي، لحظـات وتناهـى إلى مسـامعي صـوت أنـين وبـكاء، أرهفـت السـمع حـتى أتيقـن

مما أسمع، أنا لست واهمًا، هناك أنين قادم من مكان ما، ربما يكون زياد، عاودني الأمل سريعًا وانطلقت نحو الصوت، ارتفع الصوت قليلا حينما وصلت إليه، وقفت بين أبواب القبور لا أدري من أين يأتي هذا الصوت، أرهفت السمع قليلا حتى فوجئت بأن الصوت يأتي من داخل أحد القبور، اقتربت برأسي من الباب، وسمعت الأنين قادماً من القبر، دفعت الباب بيدين ترتجف من الخوف فانفتح بكل سهولة، نظرت للداخل وأنا أرتجف وعلى ضوء الشمس الذي تسلل خجلا إلى القبر رأيت زياد يجلس في ركن من أركان القبر واضعًا رأسه بين يديه ويبكي، انفطر قلبي من المشهد وهبطت بكل هدوء نحو القبر حتى وقفت على أرضه الرملية، اقتربت من الصغير وأنا أقول بصوت خافت « زياد ما بك «

ولكنه يستمر في البكاء، اقتربت منه أكثر وأنا أتمنى ألا يغلق باب القبر كما نقرأ في قصص الرعب، وضعت يدي على جسده فانتفض من مكانه وتعلق بيدي بقوة، صرخت فزعًا خاصة حينما رأيت وجهه كان مشوها تمامًا، صرخ بصوت من ينازع الموت وقال « أرجوك أخرجني من هنا «

ما إن انتهى حتى سمعت صوتًا من خلفي يقول :

- أبي ماذا تفعل بالداخل

نظرت بفزع لزياد الذي كان يقف أمام باب القبر ونظرت للخلف ببطء شديد فلم أجد أحدًا، هرولت نحو الخارج واحتضنت الصغير وانطلق راكضًا إلى خارج هذا المكان ..

بعد دقائق كنت أنطلق بالسيارة على أقصى سرعة تسمح بها محركاتها، لازالت الكلمات تتردد في ذهني

«أرجوك أخرجني من هنا»

ما هذا الذي رأيته ؟؟

هل كان وهماً ؟

ولكن هل جننت لتلك الدرجة ؟

أفقت على صيحة الصغير وهو يصرخ فانتبهت لتلك السيارة المقابلة فانحرفت في جزء من الثانية نحو اليمين، لحظات وكنا سنصطدم بتلك السيارة، أبطأت من سرعة السيارة ونظرت إلى زياد بغضب وقلت :

-لماذا تركتني وذهبت ونحن نقف أمام القبر

تكلم الصغير بخوف وقال :

-أبي أنا لم أتركك لقد كنت أقف خلفك تمامًا، وفجأة نظرت يمينك وانطلقت تركض وتنادي باسمي وأنا أركض خلفك وأناديك وأنت لا تسمعني، ثم رأيتك تدخل لهذا القبر فجئت إليك

نظرت له بدهشة وقلت :

وهل كان هناك أحدًا داخل القبر غيري ..

-لا لم يكن هناك أحدا

قالها وهو يرتجف ثم تابع:

-أبي أنا خائف بشدة

احتضنته وهدأت من روعه حتى وصلنا إلى المنزل، وصلنا المنزل وكان الليل قد هبط بثقله في كل مكان، ذهبت بالصغير لغرفته وتركته ينام ثم عدت لغرفتي ..قررت أن أنام حتى تهدأ أعصابي قليلا، دقائق قليلة وسقطت بين براثن النوم ..

رأيت نفسي أسير بين القبور وأنادي على زياد، رأيت الفتى مشوه الوجه يسير أمامي وهو يبكي، شعرت بالشفقة تجاهه، ركضت نحوه، ولكنه كان يركض أيضا وكلما توقفت وقف وكلما سرت سار، ناديت عليه فلم ينظر لي، تبعته حتى توقف أمام القبر الذي دخلته اليوم وأشار عليه وجلس أرضًا يبكي، لحظات وظهر رجلا يرتدي السواد بالكامل، شعرت بالخوف وابتعدت، وقفت خلف أحد الشواهد أراقب ما يحدث فرأيت ذو السواد يحمل الصغير الذي ظل يصيح ويطلب المساعدة مني وهو ينظر تجاهي، لم يشفق عليه ذو السواد وألقي به في القبر، انتفضت من نومي وأنا أرتجف خوفا مما رأيت، نظرت للأمام فوجدت طفلا يقف وسط الظلام صرخت من الرعب وأنرت الغرفة فوجدته زياد يقف ثابتًا أمام الفراش، اقتربت منه بهدوء، كان يقف ثابتًا وتلك النظرة المخيفة تطل من عينيه، وضعت يدي على كتفه فالتفت لي بسرعة وقال بصوت مخيف

-أبي حازم يطلب مساعدتك لا تخذله

ثم سقط بين يدي، وضعت الصغير على الفراش واطمأننت أنه يتنفس، قررت في نفسي أن أذهب غدًا لنفس القبر لمعرفة ما حدث خاصةً أن الأمر قد لحق بالصغير وقد يمسه أذى ... أمسكت الهاتف وأنا أعبث به بشرود شديد .. ماذا يحدث لي ؟؟

أي شيئ فعلته في حياتي لأخسر زوجتي بتلك السهولة ثم يأت الدور على ابني ..

أحيانًا ما تضعنا الظروف في أماكن كنا نظن أننا أبعد ما نكون عنها، ولكن نكتشف في النهاية أن الله هو المتحكم في كل شيء وليس هناك شيئا يسمى الظروف، وفي النهاية نرى أن هناك حكمة وخيرًا مما رأيناه قبلا وكنا نظن أنه شرًا خالصًا ...

هكذا قرأت تلك الكلمات وأنا أتصفح موقع التواصل الاجتماعي الشهير، شعرت بتلك الكلمات تنزل على قلبي الهدوء والسكينة وتنزع عني خوفي وقلقي .. استغفرت ربي كثيرًا ..

جاء الصباح وتركت ابني الصغير عند خالته، فليس من الجيد أن آخذه معي في تلك الرحلة وانطلقت أشق الطريق شقاً.. نحو القبور، وما أدراك ما القبور ؟؟

كانت آلاف السيناريوهات تُرسم في ذهني حول قصة الفتى الذي وجدته في القبر والذي طلب المساعدة قبلا، ما إن وصلت إلى المقابر حتى حاولت تصفية ذهني ليكون كل تركيزي على الأمر ..

عدت للمرة الثانية أسير بين القبور وفي خلال يومين فقط، وصلت إلى القبر الذي كنت عنده بالأمس، وقفت أنظر له برهبة شديدة، رهبة من يتيقن أنه سينزل لمكان مثله عندما يموت ولن يخرج منه أبدًا ..

لقد نسيت أمرًا في غاية الأهمية، ماذا بعد ؟؟

لم أخطط ماذا سأفعل بعد أن أقف أمام القبر وكأنني كنت أظن أنه بمجرد وقوفي أمامه سأعرف كل شيء، جلست أمام القبر أتلو بعض الآيات بصوت مرتفع نسبيًا حتى شعرت بالهدوء والسكينة، تناسيت نفسي طويلا وأنا أتلو حتى أوشكت الشمس على المغيب، يا للمصيبة يجب أن أخرج من هذا المكان حالاً ..

ولكني لم أفعل شيئًا ولم أستفد شيئًا من الأمر، تذكرت أمرًا مهماً

ألم يكن باب القبر مفتوحاً من قبل ؟؟

اقتربت منه وقد عاودني خوفي، دفعته بهدوء فلم يفتح، دفعت بقوة أكبر فانفتح على مصراعيه، ولكن ماذا بعد ؟ لا لا سأذهب من هنا، التفت

بهدوء لأصرخ صرخة المصروع، الفتى مشوه الوجه كان يقف خلفي مباشرة، وقفت أشهق من هول الصدمة، قلبي سيتوقف عن العمل عاجلا أم آجلا، نظرت لعينيه البيضاء وارتجفت من قمة رأسي وحتى أخمص قدماي، رفع يده بهدوء شديد وأشار نحو القبر، ما هذا ؟

هل يقصد أن أدخل إلى القبر ؟ هذا مستحيل ..

وقفت أرتجف أمامه وقد رفضت قدمي أن تنصاع لأي أمر مني، رأيت دموعًا سوداء تنساب من عينيه وصوت نحيب يأتي منه، انهمرت الدموع بعدها بلا توقف وهو لازال يشير للداخل، صوت النحيب يعلو وتكونت أسفل منه بحيرة من الدموع، شعرت بالرعب الشديد وقفزت للداخل، ما إن لامست قدمي أرضية القبر حتى توقف النحيب تمامًا، وقف ثابتًا كما هو يشير للداخل، اقتربت من الركن وجثوت على ركبتي أتحسس الرمال، اتسعت عيني ذهولاً حينما رأيت بعض العظام الصغيرة، فزعت من مكاني، يبدو أن هذا هو رفات الصغير، لفت نظري تلك القلادة المُضيئة، التقطها بيدين أوشكا على التيبس، ما إن التقطها حتى اختفى الطفل كأن لم يكن ..

خرجت أركض من المكان كمن فقد عقله حتى وصلت للسيارة وانطلقت بها على غير هُدى حتى وصلت إلى مقهى صغير، طلبت كوبًا من الشاي وجلست بجواره أتحسس الدفء منه ..

أخرجت القلادة الصغيرة، فوجدتها من الذهب الخالص، ما لفت انتباهي هو الاسم المكتوب عليها،» حازم الخليل محمد الخليل « إذا هذا هو طرف الخيط يجب أن أعرف من قتل هذا الصغير، تلك البلدة هي بلدة زوجتي وأنا أعرف أقاربها ومن هناك سأبدأ بالبحث ..

بعـد سـاعتين كنـت أجلـس مـع أعمـام زوجـتي الذيـن بالغـوا في كرمـي الشـديد، بعـد الأكل والـشرب وخلافـه، فكـرت أن أسـأل عـن الخليـل محمـد الخليـل، ولكـن بحنكـة حـتى لا يشـك أحـدا في أمـري فقلـت :

-هل يعرف أحدكم الخليل محمد الخليل ؟

وجمت الوجوه بشدة وقال أكبرهم سنا :

نعم نعرفه ولكن لماذا تسأل ؟

زوجتي رحمها الله كانت مُدانة له بمبلغ من المال وأريد أن أعطيه له

كيـف هـذا والخليـل قـد مـات منـذ سـنتين كاملتـين وزوجتـك ماتـت منـذ أيـام لمـاذا لـم تسـد دينهـا طـوال تلـك المـدة

تلعثمت قليلا وقلت :

ربما كانت تقصد زوجة الخليل فأنا أريد مقابلتها لأعطيها المبلغ

تحدث أحدهم بعصبية وقال :

إيـاك أن تذكـر هـذا الحديـث أمـام أحـد مـن البلـدة وإلا فلـن ينالـك سـوى العقـاب

شعرت بدهشة لحديثه، ولكني غيرت الموضوع وتركتهم وذهبت ...

بعد أن تركتهم رأيت أحدهم يركض خلفي ويقول :

-انتظر فأنا أريدك

جلسنا على أحد المقاهي وبعد أن شربنا الشاي قال :

-الأمر ليس ديناً إذا قل لي لماذا تسأل عن الخليل ؟

-صدقني الأمر في غاية الأهمية وأنا أحتاج مساعدتك أريد أن أقابل زوجة الخليل

لا يمكنك هذا أبدا، فبعد أن مات الخليل تزوجها رجلاً ظالماً يخشاه أهل البلدة جميعاً يسمى الطحاوي وهو رجل لا يتوقف عن الظلم وإيذاء الناس ولو علم أن هناك من سأل أو قابل زوجته فسيقتله في الحال

نظرت بحزن للأسفل فقال لي :

-هل الأمر مهم لتلك الدرجة ؟

-نعم مهم لأبعد مدى

- حسنًا فلتبيت معي وأنا سأجعلك تقابلها وهذا لأجل زوجتك رحمها الله

في الصباح طلب الرجل من زوجته أن تتصل بزوجة الخليل سابقًا والطحاوي حاليًا وتطلب منها المجيء لأمرٍ ما

نفذت الزوجة الأمر والتي كانت صديقة لها، ساعة وحضرت زوجة الطحاوي وجلست في المنزل، خرجت عليها فنظرت لي بخوف فطمأنها قريب زوجتي وقال لها :

-سيخبرك أمراً ما فقط وسيذهب فهو ضيفنا وزوج قريبتي رحمها الله

خرج الرجل وتركني مع زوجة الطحاوي فقلت لها :

-هل تعرفين فتى اسمه حازم

نظرت لي بلهفة وقالت :

-نعم هو ابني هل وجدته ؟

قبل أن أخبرك بالأمر يجب أن تخبريني قصتك كاملة وهذا شرطي .. نظرت لي بلهفة شديدة وبدأت تقص ..

لقد تزوجت ابن عمي الخليل منذ سنوات وانجبت منه حازم، تُوفي الخليل بعدها وبقيت أنا على حالي أرملة، بدأ الطحاوي يتقدم لي وأنا أرفضه؛ لأنه كان ظالماً ولكنه ومع تسلطه وظلمه قبلت به في النهاية وتزوجني ..

كان لا يطيق الصغير بل ويضربه كل يوم على أتفه الأسباب، حتى إنه كاد أن يقتله يومًا ما لولا أن دافعت عنه، وكانت النتيجة أن شجت رأسي من ضربته بالعصا ..

كان يقول لي دائما أن حازم يفسد جلسته معي وهو يريدني أنا فقط ودون أي شريك هكذا قال ..

وفي يوم اختفى الصغير ولم يعود أبدًا، بكيت يومها كثيرًا، ولكن الطحاوي كان في غاية السعادة وها أنا أبحث عن ابني من يومها ولم أجده، والآن أخبرني :

-هل وجدت ابني ؟

أخرجت لها القلادة فتلقفتها بلهفة وقالت :

- إنها قلادته التي أخذها هدية من والده أين وجدتها أخبرني ؟

-البقاء لله لقد مات ابنك

انتفضت في مكانها وراحت في نوبة بكاء هستيرية، حاولت تهدئتها وبعد محاولات كثيرة قالت :

-كيف مات ؟

-هل تريدين ثأرًا ؟

-هل مات مقتولا

-نعم ولكن أخبريني عن ملابس الطحاوي

-لا يرتدي سوى الأسود في كل شيء

تذكرت حينما رأيت ذو السواد وهو يلقي الصغير في القبر فقلت :

-لقد قتله زوجك

صرخت من المفاجأة وقالت :

-سأقتله

-لا لا انتظري حتى لا تفسدي الأمر

ثارت المرأة وكادت أن تفضحنا لولا أن حاولت تهدئتها بكل السُبل وبعد نصف ساعة كانت هادئة وبدأت تسمع مني :

-هل الطحاوي يحب المال

-كثيراً

-حسنا ستخبرينه أن هناك رجلاً غريباً يحفر في القبور بحثاً عن مقبرة مليئة بالكنوز وأنكِ سمعتي الأمر من بعض النسوة حينما كن يزورن الموتى واتركي الباقي لي ...

بعد منتصف الليل، كنت أنتظر على أول المقابر، اتمنى ان تؤدي الزوجة دورها ببراعة، ما لبثت قليلا حتى رأيت رجل ضخم الجثة يرتدي السواد وبجواره رجلين يقتربان من المقابر ظهرت لهم وكأنني لم أقصد ووقفت أرتعد، اقتربوا مني وقال الطحاوي :

-من أنت ؟ ولماذا جئت إلى هنا ؟

-سأخبرك ولكن لا تؤذيني

-حسنا أخبرني

لقد وجدت مقبرة مليئة بالذهب وابحث عن من يحمل معي الذهب ولا أجد، لمعت عينيه ببريق مخيف وقال :

-حقا ؟

-نعم فهل ستساعدني لاستخراج الكنوز ولك نصف الكنز

قال لي:

-لا لي ثلاثة أرباع وإلا سأقتلك هنا

مثلت الرعب ببراعة وقلت :

-لك ذلك

طلبت من الرجلين أن يسرعا ويحضرا له حفر فذهب أحدهم وبقي الآخر فقلت للطحاوي :

-أنا لا ائتمن أحداً سواك ولن أدلك على الطريق إلا حينما يذهب هذا الرجل

نظر لي بشك، ولكنه طلب من الرجل الآخر أن يتعجل زميله

انطلقنا وأنا أحاول إبهاره بتلك المقربة التي وجدتها وأننا نحتاج فقط لأداة حفر لنجتاز صخرة بسيطة لنصل إلى الكنز، وصلنا إلى القبر، قبر الصغير حازم، تعثرت أمامه وأنا أمثل أنني ملهوف على الكنز، دعوت الله ألا يلاحظ أن هذا القبر هو قبر الصغير والذي قتله ودفنه فيه من قبل ..

وقف على الباب وكاد أن يدلف، ولكنه توقف مكانه ونظر لي وقال :

-قبر من هذا ؟ وكأنه يتذكر

لـم أمهلـه لحظـة وضربتـه بقدمـي فسـقط داخـل القـبر أغلقـت البـاب في لمـح البـصر ووضعـت عليـه قفـل مـن الخـارج، في تلـك اللحظـة ظهـر الصغـير مشـوه الوجـه نظـر لي وابتسـم ثـم اخـترق البـاب كالشـفاف ودخـل إلى القـبر ..

سـمعت صـوت صراخ رهيـب قادمـاً مـن الداخـل وكأن أحدهـم قـد سـقط في قلـب الجحيـم ، طرقـات وصيحـات وعـشرات الأصـوات المفزعـة تـأتي مـن القـبر، بالطبـع لـم أنتظـر لأسـمع كل هـذا وإنمـا انطلقـت كالصـاروخ نحـو سـيارتي الـتي ركنتهـا مسـبقًا في منطقـة نائيـة غـير ظاهـرة للأعـين وركبتهـا وانطلقـت كالصـاروخ في طريقـي قابلـت رجـلا يحمـل معـول، إنـه نفـس الرجـل الـذي كان مـع الطحـاوي ابتسـمت وقلـت في نفـسي ..

ليس هناك كنزاً أيها الأحمق ...

وصلـت للبيـت وأنـا في غايـة التعـب فنمـت عـلى الفـور .. وهنـاك في عالـم النـوم رأيـت الطحـاوي مقيـد بسلاسـل مـن نـار وبجـواره الطفـل يضربـه بسـوط مـن الجحيـم .. صرخـات الطحـاوي تمـزق القلـب .. وقفـت خلـف الصغـير وأنـا أرتعـد فالتفـت لي في لمـح الـبرق فانتفضـت في مـكاني ولكنـه غمـز بعينيـه فقـط وابتسـم ففتحـت عيـني واسـتيقظت ..

تمت

أحمد محمد شرقاوي